

لسانيات الكذب في ضوء الدراسات الأدبية The Linguistics Of Lying In Literary Studies



ط. د نور الدين حبيب رشيد^{*1} د. كباس عبد القادر²

¹جامعة تيسمسيلت أحمد بن يحيى الونشريسي، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة جامعة تيسمسيلت، -الجزائر-

rachid.noureddine@univ-tissemsilt.dz

²جامعة تيسمسيلت أحمد بن يحيى الونشريسي، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة جامعة تيسمسيلت، -الجزائر-

kebas.abdelkader@univ-tissemsilt.dz

تاريخ الإرسال: 2025/07/17 تاريخ القبول: 2025/10/20

ملخص:

تتناول لسانيات الكذب بوصفه موضوعاً لغوياً خالصاً؛ حيث تتجرد من الأحكام الأخلاقية والإدانات المسبقة. فتُقصي الاعتبارات الدينية والفلسفية والنفسية من دائرة اهتمامها، لتخضع الكذب لتحليل لساني صرف انطلاقاً من كونه ظاهرة لا يمكن تجاهلها في استعمال اللغات الطبيعية. وفي هذا المقال، نسعى إلى توضيح العلاقة بين لسانيات الكذب والدراسات الأدبية، بهدف تقديم قراءة جديدة للأدب تنطلق من مقارنة لسانية تُبرز تداخل اللغة بالكذب والإبداع الأدبي.

الكلمات المفتاحية: لسانيات الكذب؛ هارالدفاينرش؛ الأدب والنقد؛ الإبداع؛ الدراسات الأدبية

Abstract:

The linguistics of lying treats lying as a purely linguistic subject, detached from moral judgments and preconceived condemnations. It deliberately excludes religious, philosophical, and psychological considerations from its scope, subjecting lying instead to strict linguistic analysis. This stems from the understanding that lying is an unavoidable phenomenon in the use of natural languages. In this article, we aim to clarify the relationship between the linguistics of lying and literary studies, in order to offer a new reading of literature based on a linguistic approach that highlights the interplay between language, lying, and literary creativity.

Key words: Linguistics of Lying, HaraldWeinrich, Literature and Criticism, Creativity, Literary Studies

*المؤلف المراسل نورالدين حبيب رشيد

مقدمة:

يُعدّ موضوع الكذب من المواضيع الشائكة التي استأثرت باهتمام الفلاسفة والمفكرين والأخلاقين واللاهوتيين، لكنه ظلّ قليل التناول من زاوية فقه الخطاب واللسانيات النصية. في هذا السياق، يندرج هذا البحث ضمن مشروع أوسع يطمح إلى مساءلة الظواهر التواصلية من داخل البنية اللغوية نفسها وليس فقط من حيث آثارها أو تقييماتها الأخلاقية.

لقد كانت أعمال اللساني الألماني هارالد فاينريش نقطة انطلاق أساسية في بناء هذا التصور لما تضمنته من ملامح تأسيسية لما يمكن تسميته بـ"لسانيات الكذب"، ولكن دون الاكتفاء بالنقل أو التلخيص، بل بالتفاعل مع أفكاره ونقدها أو تجاوزها كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

تعتمد هذه الدراسة منهجاً تحليلياً استقرائياً، يستند إلى تحليل البنى اللغوية والسياقات التداولية التي يُنتج فيها الكذب ويُستقبل، وتفكيك الوسائط التعبيرية التي تجعله ممكناً ومؤثراً. تنبثق إشكالية هذا المقال من سؤال محوري هو: هل يمكن تحليل الكذب لغوياً ونصياً بمعزل عن أحكام القيمة؟ ويتفرّع عن هذا السؤال قضايا فرعية مثل:

- هل تكذب اللغات أم يكذب مستعملوها؟

- ما مؤشرات الكذب في اللغة؟

- وهل ثمة علاقة بين الكذب والإبداع الأدبي؟

من خلال هذه الإشكالات، يسعى المقال إلى تتبع المظاهر النصية والتداولية للكذب عبر مجموعة من المحاور المتتالية، بدءاً من ظهوره النظري، ثم فحص معايير وأنماطه ومؤشرات، وصولاً إلى العلاقة المعقدة بين الكذب كظاهرة تواصلية، والأدب كأحد أرقى أشكال التعبير اللغوي الإنساني.

1_ ظهور لسانيات الكذب إلى الوجود

يتميز الإنسان عن بقية الكائنات الحية بخاصيتين فريدتين؛ أولاهما: التفكير، الذي يخول للبشر القدرة على تمييز الأفعال وإنجازها، كما يمكن التفكير الإنسان من الملاحظة والاكتشاف، ويساعده على فهم الكون ومعرفته، ويذكي لدى البشر ملكة الإبداع والاختراع. والخاصية الثانية المميزة للإنسان هي اللغة، والتي بها يستطيع الفرد التواصل مع بني جنسه، فتفتح له اللغة بذلك القدرة على مشاركة أفكاره وآرائه، والبوح بمكنونات صدره ولواعج نفسه، ويفهم بالمقابل من خلال استعمال اللغة ما يجول بخلد غيره من بني البشر.

طرحت الفلسفة، انطلاقاً مما سبق، سؤالاً يبدو مشروعاً عن العلاقة القائمة بين اللغة والفكر ونجم عن هذا الطرح إجابات عديدة بوجهات نظر مختلفة، ليس هنا مجال عرضها كلها. والمهم في هذا

الصدد أنه ظهرت بعد ذلك قضية مهمة، تتمحور حول إمكانية خداع اللغة للفكر. ولورد على هذا التساؤل الجديد عن علاقة اللغة بالفكر، ظهر إلى الوجود مفهوم: "لسانيات الكذب" **Linguistics of Lying** على يد هارالد فاينريش (Harald Weinrich).

2_ أهم أفكار هارالد فاينريش

جمع هارالد فاينريش أفكاره حول لسانيات الكذب في كتاب صغير باللغة الألمانية يحمل عنوان "Linguistik der Lüge" (أي: لسانيات الكذب). وقد جاء هذا الكتاب امتداداً لاهتمامه الأوسع بما يُعرف بلسانيات النص. بعد مرور خمسة وثلاثين سنة من صدور عمله الأول، أضاف فاينريش إليه ملحقاتاً يُكمل فيه أفكاره، ويوضح بعض المفاهيم التي أثارت جدلاً. قدّم فاينريش عمله بأسلوب واضح وبسيط معتمداً على أمثلة دقيقة وموضحة لما يرمي إليه. وقد صبّ تركيزه بشكل خاص على البعد الدلالي في دراسة ظاهرة الكذب من زاوية لسانية، مع إيلاء اهتمام بالغ لكل من السياق والقصد، باعتبارهما عنصرين أساسيين في التعرف على الكذب وإشاراته.

أهم النقاط التي تطرق إليها فاينريش في مشروعه حول لسانيات الكذب استناداً إلى كتابه:

1. تجنّب الحكم الأخلاقي على الكاذب والتركيز بدلاً من ذلك على التفكير بوصفه أقوالاً، وبالتالي مقارنة ما يفكر فيه الإنسان بما يقوله، للكشف عن التناقض الممكن بين التفكير والكلام.
2. اعتبار الكذب معطًى لغوياً صريحاً، يخضع للتحليل اللساني الخالص بعيداً عن المقاربات النفسية أو الفلسفية أو اللاهوتية.
3. تجريد لسانيات الكذب من المفاهيم الجمالية والأخلاقية والدينية، وهو ما يمنح هذا المشروع طابعاً علمياً صريحاً لا يخضع للأحكام القيمية المسبقة.
4. تصنيف لسانيات الكذب ضمن لسانيات النص، رغم أن فاينريش درس الكذب أيضاً على مستوى الكلمة والجملة، إلا أن المنظور النصي هو الذي يُتيح تتبع الكذب في بنيته الكاملة.
5. الربط بين لسانيات الكذب والدراسات الأدبية، وخاصة الشعر، لما في العمل الأدبي من طاقة تخيلية تستعير أحياناً مظهر الكذب دون أن تُقصد به المخادعة.
6. تقديم مفهوم "مؤشرات الكذب"، أي العلامات اللغوية التي تساعد على التعرف إلى الكذب من داخل النص نفسه، دون العودة إلى نوايا المتكلم فقط.
7. الاستفادة من ملاحظات لسانيين سابقين حول الكذب، وتطويرها ضمن إطار نظري متماسك.
8. القول بإمكانية الاستفادة من الكذب نفسه، على الرغم من الإدانة الأخلاقية له، لأنه يكشف بنية الحقيقة، ويحفز الخطاب على الدفاع عن نفسه.

9. التمييز بين الكذب والمجاز، إذ حكم فاينريش بأن المجاز ليس كذباً، بل أداة تعبير فني مشروعة.
10. تأكيد المكانة المركزية للسياق والقصد والدلالة في تحليل الكذب، بحيث لا يمكن دراسة الكذب دون فهم هذه العناصر الثلاثة مجتمعة.

3_لسانيات الكذب لسانيات نصية

لم يتعمق النحاة أو اللسانيون قبل فاينريش في مسألة الكذب، لأن الكذب عندهم كان يُعد حكماً على قضية أكثر منه معطى لغوياً أو لسانياً. ومن ناحية أخرى، فإن الوسائل والإجراءات النحوية أفقر من نظيراتها في التخصصات الأخرى (كالفلسفة أو علم النفس) من حيث القدرة على التعرف على الكذب أو كشفه. ذلك أن الفلسفة أو علم النفس بما يملكانه من أبعاد خارج اللغة يبدوان أقرب إلى فهم مسألة الكذب وتحليلها، مقارنة بما يمكن أن يقدمه النحويون، لأن علم التركيب يعجز لوحده عن الكشف عن الكذب أو مؤشرات. ولذلك أولى فاينريش السياق والقصد أهمية خاصة، وأوضح دورهما المهم في دراسة الكذب. كما ركّز تركيزاً واضحاً على الدلالة، ودورها الذي لا يمكن إقصاؤه لمعرفة الكذب والانتباه إلى مؤشرات. ولهذا السبب، تُعدّ لسانيات النص أوسع مجالاً وأكثر نجاعة لدراسة الكذب إجرائياً.

أما المسألة الأخرى، فهي أن الغالب على نحو الجملة — في الأساس — هو الطابع التعليقي، لأنه يراعي التلاؤم أو الانحراف في الكلام، قياساً على الأصول الثابتة في استعمال اللغة (زكرياء، 1986، صفحة 12) وهذا ما يدفع إلى التساؤل: هل لعلماء اللغة التقليديين مدخل حقيقي لمسألة الكذب، إلا في حدود جمل صارمة، من تلك التي يُفضلها علم المنطق؟ (هارالد، 2016، صفحة 54)

4_هل تكذب اللغات؟

يتطلب الكذب استعمال اللغة لخداع الفكر، بل إن الكذب — لفهمه لسانياً — لا يمكن دراسته إلا إذا تحوّل إلى أقوال وملفوظات. وفي هذه الحالة، فإن اهتمامنا ينصبّ على ما أنتجه مستعمل اللغة من ألفاظ، وعلى آليات استخدامه للغة من أجل الكذب. لكن السؤال الذي نودّ الإجابة عنه هنا هو: هل تكذب اللغات؟

4_1_القوالب اللغوية المنحازة

تمتلك اللغات قدرة كبيرة جداً على التعبير عن الأفكار والمشاعر، وهي أنجع وسيلة للتواصل بين البشر. هذا من الجانب الفردي. لكن من جانب آخر، فإن اللغة تحمل أيضاً أهم المعطيات الفكرية والثقافية والأدبية لمجتمعات بأكملها، وهذا ما يجعل اللغة توظف — أحياناً — قوالب لغوية جاهزة ومتداولة بين أبناء اللغة الواحدة، وهي قوالب ناتجة عن تراث وتاريخ وثقافة هذا المجتمع، بما في ذلك من أفكار متحيزة أو عنصرية أو ذاتية (فالغ، 2003، صفحة 8)

هذه القوالب اللغوية العنصرية أو المتحيزة تنتقل مباشرة إلى متعلّم اللغة ومكتسبها، فيأخذ أفكاراً مسبقة عما لم يعاينه أصلاً. فقد يُوصَف شعبٌ ما بأنه بخيل، أو بأنه لا يحافظ على نظافته الشخصية، وقد يصل الأمر إلى أن يتورّط الإنتاج الأدبي، مثل الأدب الكولونيالي أو الأدب الشعبي، في التحقير والتقزيم لعرقٍ كامل أو لإثنيةٍ معينة. ونأخذ أمثلة من اللغة الفرنسية مثل كلمات *barbare*: indigène، nègre، sauvage

ويكمن خطر هذا الوصف اللغوي المنحاز في تأثيره العميق على فكر أبناء اللغة أنفسهم، سواء من المتكلمين الأصليين أو من المتعلّمين لاحقاً. فحين تُقدّم الجملة الثقافية بوصفها جملة لغوية محايدة، فإنها تمرّ إلى الذهن بلا مقاومة، وتُخزّن في الذاكرة اللغوية الجماعية على أنها حقيقة. وهكذا يتحوّل التحيز الثقافي إلى معرفة لغوية مُسلم بها. ومن هنا، فإن الكلمات التي تحمل أحكاماً عنصرية أو دونية لا تُعلّم فقط بوصفها مفردات، بل تفرض رؤية معينة للعالم، وتجعل من التصنيفات الثقافية والأحكام المسبقة مكوّنات التفكير. وهذه هي اللحظة التي تتحوّل فيها اللغة من وسيلة وصف إلى وسيلة قول زائف منظم، لأننا نتعامل مع الجملة الثقافية هنا كما لو كانت جملة لغوية، وفق منطق لِسانيّ خالص، بينما هي موجهة سلفاً بإحداث أثر في الوعي والذاكرة

4_2_ الغواية اللغوية:

الجانب الثاني للغة الذي يُخفي في طياته خداعاً هو المظاهر اللغوية من مجاز واستعارات وكنيات وتورية، وهذا ما يُعرف بالانزياح اللغوي. الانزياح اللغوي هو مجاوزة اللغة لمألوف القول وخروجها عن معيار الاستخدام العادي إلى تركيب غير معتاد، وهو ما يتيح للخطاب إمكانات واسعة للتأثير والتلميح والإيهام. ويتم ذلك غالباً عبر أدوات مثل المجاز، الاستعارة، الكناية، والتورية، حيث لا تُستخدم الألفاظ بمعناها المباشرة، بل يُنزاح بها إلى معانٍ أخرى، فيغدو الكلام محمّلاً بإيحاءات تُخفي أكثر مما تُظهر. وهنا تكمن غواية اللغة، إذ تبدو في ظاهرها بريئة أو حتى شاعرية، بينما تحمل في عمقها طاقة على التضليل أو التجميل أو الإيهام، عن قصد أو عن غير قصد.

_ تبقى اللغة مجرّد ناقلٍ للأفكار والمفاهيم، وأداةٍ للتعبير عن الأحاسيس والمشاعر. وهذه الأفكار كما ذكرنا سابقاً، أو تلك المشاعر، لا يمكن دراستها لغوياً إلا إذا تحوّلت إلى كلمات وجمل (هارالد، 2016، صفحة 94). وهذا لا يكون إلا عن طريق مستعمل اللغة. وبالتالي، فإن الكذب أو الخداع، أو الصدق والشفافية ليست لصيقة باللغة في حدّ ذاتها، وإنما بالمتكلم. أي إن اللغة بريئة من تصرفات مستعملها. سواء أكان الأمر يتعلق بالقوالب اللغوية الجاهزة، أو بمفهوم الغواية اللغوية، فإن ذلك كلّه يقع ضمن إرادة المتكلم وليس للغة من دور سوى طواعيتها في نقل ما يريد المرسل إلى المتلقّي.

5_ معايير تصنيف الكذب من الصدق:

يُظهر الواقع الاستعمالي للغة في المجتمع أن هناك مهناً قائمة في جوهرها على الكذب والخداع مثل الاحتيال، والبغاء، والسمسرة، والسياسة. ويثير المثال الأمريكي الشهير حول الالتباس بين كلمتي lawyer (محام) وliar (كاذب) مفارقة دلالية ساخرة تعكس الشك العام في مهنية القول داخل بعض المجالات. ويُدرج الأدب والنقد مفاهيم عديدة تحت هذه الظاهرة، مثل: "أعذب الشعر أكذبه"، و"كذب الشعراء"، و"كذب الرواة"، فضلاً عن أبطال الورق في السرديات، الذين كثيراً ما يُبنى حضورهم على التواطؤ الجمالي مع الكذب والتزييف الفني.

وتُحوّل بعض المهن أصحابها إلى محترفي كذب، لا يمارسونه كوسيلة بل كجزء من الهوية العملية ما يجعل الكذب نفسه مهارة، ويُظهر أن معايير الصدق والكذب ليست لغوية خالصة، بل ثقافية واجتماعية بامتياز.

تدفع بعض المواضيع وميادين معينة مستعمل اللغة إلى الكذب، مثل الحرب، والصيد، والغراميات، والمغامرات، والأسفار، والتنقلات. وهذه المواضيع ليست فقط أغراضاً أدبية، شعرية أو نثرية، بل هي أيضاً شائعة التداول في اللغة اليومية من قبل مستعملي اللغة. ويُفضي ذلك إلى طرح سؤال محوري: متى نحكم على القول، أو على العمل الأدبي، بأنه صادق أو كاذب؟ وهكذا ننتقل إلى المعايير التصنيفية التي تساعدنا في التفرقة بين القول الكاذب والقول الصادق، سواء على المستوى التداولي أو على المستوى الجمالي.

6_ المعايير التصنيفية للكذب:

تُبنى المعايير التي تميّز الكذب من الصدق على عدة عناصر أساسية، أبرزها:

أولاً: يُضمّن المتكلم قوله نية خداع الآخر، أي أنه يقصد ويتعمّد أن يُضلل متلقيه. فالقول الكاذب هنا ليس مجرد تعبير عفوي، بل هو مقصود به الخداع. (دريدا، 2016، صفحة 12)

ثانياً: يعزم المتكلم على إلحاق الأذى بالمخاطب أو بغيره من خلال قوله، كما نرى في أقوال المحرّضين أو "الدسّاسين" في التراث (دريدا، 2016، صفحة 18)

ثالثاً: يُخالف القول الواقع الخارجي الملموس، كأن يقال "الجوصحو" بينما هو في الحقيقة ممطر، فيكون القول كاذباً لأنه لا يطابق الواقع. (أدراوي، 2011، صفحة 82)

رابعاً: مخالفة المعرفة المشتركة اليقينية، ويُقصد بها أن يُناقض قول المتكلم ما هو مثبت ومعلوم لدى الجميع، كأن يزعم مثلاً أن الصحراء الكبرى تقع في آسيا، أو أن يتحدث في موضوع لا علم له به أصلاً.

خامساً: مخالفة الاعتقاد، وتحدث حين يُصرّح المتكلم بما لا يعتقد في قرارة نفسه، حتى وإن كان ما يقوله مطابقاً للواقع. ويُعدّ هذا السلوك معروفاً في الثقافة الإسلامية، إذ يُفرّق فيه بين صدق القول وصدق الاعتقاد. أما إذا كان المتكلم يقول كلاماً خاطئاً وهو مؤمن به، فلا يُعدّ كاذباً، لأنه لم يخالف ما يعتقد. ينظر: دريدا، ص 17 والمعايير السابقة لا تكتفي بفصل القول الصادق عن الكاذب، ولا الكذب عن الحقيقة فحسب، بل تُحيل أيضاً إلى درجات قبح الكذب، فتُميّز بين القول الخاطئ والكذب، وبين الكذبة الصغيرة والفرية العظيمة، كما تُلفت إلى علامات الكذب ومؤشراته الممكنة.

7_درجات قبح الكذب:

يأخذ الكذب في اللغة العربية تسمياتٍ عديدة، مثل البهتان، والزور، والاختلاق، والافتراء، والجحود، وغيرها. ولكلٍّ من هذه الألفاظ معنى مخصوص يُحدّد نوع الكذب أو طريقته في الكلام؛ فقد يكون الكذب تزويقاً للقول وتزييناً له، أو إنكاراً لما هو معلوم ظاهر، أو اختلاقاً متعمداً لقولٍ مكذوب. (العسكري، صفحة 54)

وكما تختلف هذه الألفاظ في معناها، فإنها تختلف أيضاً في درجة أذاها، وبالتالي في درجة قبح الكذب نفسه، بين ما يُسمّى "الكذبة البيضاء"، وما يُعدّ قذفاً شنيعاً. كما أن فُحش الكذب يزداد بقدر قيمة المكذوب عليه؛ فالكذب على شخصٍ عادي ليس كمن يكذب على الله أو على نبي(العسكري، صفحة 42)

وإذا كانت درجة القبح تزداد من لفظةٍ إلى أخرى، ومن جملةٍ إلى أخرى، تبعاً لاختلاف السياقات والمقامات، فهل يمكن القول إن القول الكاذب يُنتج أثراً سلبياً في المجتمع؟ أي: هل يُمكن أن يُفضي الكذب الفاحش إلى فعل إنجازي ضارّ على المستوى الاجتماعي والثقافي؟

8_التصديق والتكذيب:

لا تتركز درجة فحش الكذب على معانيه اللغوية فقط، ولا على قيمة المكذوب عليه، ولا حتى على مقدار الأذية التي يمكن أن تنجم عن القول الكاذب، بل تتحدد بدرجة ارتباطه بثنائية مركزية هي: التصديق والتكذيب.

فالقول الكاذب، مهما بلغت خطورته، لا يكون له أي تأثير فعلي ما لم يُصدّق. ولذلك نسعى دوماً إلى تفنيد الأكاذيب والأباطيل، لأنّها تفقد كل قيمة وكل أثر بمجرد إثبات كذبها. بل إنّ تأثيرها قد ينقلب على الكاذب نفسه، حين يُكشف أمره.

المعيار الحاسم في أثر الخبر الكاذب، سلبياً أو إيجابياً، هو مدى تصديقه أو تكذيبه من قبل المتلقي. فالكذب لا يملك أي قيمة ولا يُحدث أثراً يُذكر، ما دام المتلقي لم يصدق الخطاب الكاذب. فتكذيب المتلقي يفرغ الكذب من مفعوله، ويُبقيه مجرد صوت بلا صدى.

والجدير بالذكر أن ثنائية التصديق والتكذيب لا تقف عند القول الكاذب، بل تتجاوز ذلك إلى القول الصادق كذلك. فنحن نصدق الصادق ونكذب الكاذب، وهذا هو المعقول والمقبول في ميزان العقل واللغة. غير أن الخطورة الكبرى تكمن في انقلاب هذه الثنائية: أي حين يُصدّق الكاذب وتُكذّب الحقيقة، أو حين يُمنح الباطل شرعية الخطاب ويُقصى الصدق من التداول. وهنا بالذات تبرز أهمية اللسانيات في درس الكذب، إذ تمنح لسانيات الكذب مشروعها النظري وشرعيتها الإستمولوجية، وتُسند لها مكانة علمية في مقارنة اللغة والخطابات ضمن شروطها المعقدة.

أما الأمر الثاني الناتج عن تصديق الكاذب وتكذيب الصادق، فهو انتقال المسؤولية عن الآثار السلبية المترتبة على ذلك من المرسل إلى المتلقي. فعندما يُكذّب الصادق وتُصدّق الأباطيل، فإن النتائج لا تعود إلى أصل الخطاب بقدر ما تقع تبعاتها على من اختار أن يُخطئ في الحكم. ويمكن أن نمثل هذا المعنى بما ورد في البيت الشعري:

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا لغفا ونام

ويُضرب هذا البيت مثلاً لتكذيب الصادق، رغم صدق إنذاره ووضوح قوله. فالقائل يدعو قومه للرحيل قبل أن تحلّ الكارثة، كما تفعل طيور القطا التي لا تُخطئ مواطن الخطر، ولكنهم لا يصدقونه إلا بعد فوات الأوان.

من هنا، فإن دوافع التصديق والتكذيب لا تتعلق فقط بصدق الخبر أو كذبه، بل كثيراً ما ترتبط بعوامل نفسية أو مصالح ذاتية تخص المتلقي نفسه. فقد يُصدّق خبراً كاذباً لأنّه يحقق له منفعة، أو يُكذّب خبراً صادقاً لأنّ تصديقه يجلب عليه ضرراً محتملاً أو يعارض رغباته ومعتقداته.

دوافع التصديق والتكذيب:

يمكن تلخيص بعض دوافع التصديق والتكذيب في عدد من النقاط الإضافية، التي تُظهر مدى تداخل الحقيقة بالكذب في عقل المتلقي وسياقه النفسي والاجتماعي. ومن هذه النقاط:

أ. مرارة الحقيقة: أحياناً تكون الحقيقة مُرّة، يصعب على المتلقي قبولها، كأن ترتبط بحوادث تاريخية أليمة، أو تسيء لرموز مقدسة، أو تسفه الآباء والأسلاف، فيلجأ إلى تكذيبها دفاعاً عن مشاعره وهويته.

ب. اللذة النفسية للكذب: قد يستمتع المتلقي بالكذب حين يُرضي غروره الشخصي، كما في حالة المديح الزائف، أو الثناء المبالغ فيه، أو حتى في متابعة قصة خيالية تنسجم مع رغباته اللاواعية.

ج. المنفعة العملية: حين يُحقق الكذب منفعة مادية أو سياسية أو اجتماعية، سواء من خلال استمراره أو تكراره، فإن المتلقي قد يُصدقه أو يتغاضى عنه لأجل هذه الغاية.

د. غياب الدليل القاطع: في حال عدم توفر الحجج أو القرائن المؤكدة، قد يرجّح المتلقي أحد الطرفين (التصديق أو التكذيب) بناءً على ميول ذاتية أو سياقات غير معرفية.

هـ. التهويل أو الاستصغار: يختار المتلقي أحياناً تصديق الكذب أو تكذيب الحقيقة بحسب ما يُضخّم من شأن الخبر أو يُقلّله، تبعاً لأثره النفسي أو رمزيته في ذهنه.

غير أنّ المسألة لا تقف عند دوافع المتلقي فقط، بل تمتد إلى مهارات الكاذب نفسه في تمرير خطابه. فتكذيب الأقوال والنصوص لا يعتمد فقط على وعي المتلقي أو قدرته على كشف مؤشرات الكذب، بل أيضاً على قدرة الكاذب ذاته على التمويه، والمخاتلة، وإخفاء المؤشرات التي قد تفضحه. وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن الآليات التي يستخدمها المخاطب الكاذب في تمرير كذبه على المتلقي. ومن خلال تحليل نصوص متعددة وأدبيات متنوعة، أمكننا استخلاص عدد من التناقضات والأساليب المتضادة التي يلجأ إليها الكاذب، فكوّنت ما نسميه هنا ثنائيات الكذب.

وقد اخترنا الربط بين عناصر هذه الثنائيات بحرف "أو" بدلاً من "الواو"، للدلالة على تضادها في الدلالة لا في الاستعمال. فالكذب قد يستثمر أحد الطرفين كما في: المبالغة أو التهويل، أو التحقير أو الاستصغار، وقد يجمع بين النقيضين ضمن خطاب واحد، لإرباك المتلقي، وتمرير المعلومة الملفقة بحيلة ذكية. والآن، لنلق نظرة مختصرة على أبرز هذه الثنائيات.

9_ ثنائيات الكذب:

تعتمد النصوص والأقوال الكاذبة عادةً على أساليب مدروسة لمغالطة المتلقي ومخادعته، خاصةً حين يكون المكذوب عليه شخصاً حاضراً أو موضوعاً قابلاً للتثبت، إذ سبق أن أشرنا إلى أن الكذب ينطوي في أصله على قصد الخداع، وأن الكاذب يهدف إلى إقناع المتلقي رغم زيف قوله. ولهذا السبب، يعتمد الكاذب إلى:

- ثنائية الزيادة أو النقصان: يلجأ الكاذب إلى أسلوب الزيادة أو النقصان، إما بإضافة تفاصيل دقيقة ومفصلة توهم المتلقي بصدق الرواية، أو بحذف أو إنقاص بعض الحقائق رغم معرفته بها. فهو يزيّف الواقع من خلال المبالغة في بعض الجوانب، أو الإخفاء المتعمد لجوانب أخرى (العسكري، صفحة 43)

- ثنائية القلب أو الإلصاق: يعتمد الكاذب إلى قلب الوقائع أو إلصاق الأفعال بغير فاعليها الحقيقيين، فيجعل المنتصر منهزماً أو ينسب البطولة لغير أهلها. كما قد يُلصق التهم بالأبرياء، أو يتبرأ من أفعاله بإلقائها على طرف غائب أو محصن من المحاسبة، كما نرى في خطابات: "كانت أوامر من صدام" أو "من هتلر".

- ثنائية المبالغة أو التهوين: يُضخّم الكاذب الأمور التافهة ويمنحها أبعادًا غير واقعية، أو بالعكس يُهوّن من خطورة الوقائع الجسيمة. كأن يصف هزيمة بأنها انتصار، أو يقلل من شأن جريمة خطيرة.
- ثنائية التزيين أو التشويه: يُزَيّن الكاذب قوله عبر التزويق اللفظي وتجميل صورته أو مواقفه، أو يشوّه الآخرين عبر تقديم صور مشينة لا تمتّ للحقيقة بصلة. كمن يجمل صورة المحتلّ أو الحاكم الظالم، أو يشوّه وجه المقاوم والمصلح.
- ثنائية الإظهار أو الإخفاء: يعرض الكاذب حقائق جزئية ويُسلّط الضوء عليها دون غيرها، ويوجه انتباه المتلقي عمدًا إلى ما يريد. وقد يُخفي حقائق جوهرية أو يُطمس أدلة كاملة، وهو بذلك يرتكب كذبتين: واحدة بالقول، وأخرى بالصمت.
- ثنائية التعميم أو الاجتزاء: يعتمد الكاذب على تعميم جزئيات صحيحة وتحويرها إلى قواعد عامة مضللة، أو يجتزئ جزءًا من كلّ ليقدمه كنموذج معاكس. مثل من يقطع آية "فويل للمصلين" دون إتمامها، أو من يعمّم سلوكًا شاذًا على فئة بأكملها.

10_ مؤشرات الكذب:

في سياق الحديث عن ثنائية التصديق والتكذيب، سبق أن بيّنا خطورة تصديق الكاذب وتكذيب الصادق، لما لهذا من أثر على نقل الحقيقة وتحريف الوعي. لكن السؤال الجوهرى الذي يظل مطروحًا هو: كيف يمكن للمتلقى أن يكشف عن الكذب والخداع في القول أو النص؟ الكاذب المحترف يحسن الاختباء ويُجيد المراوغة والخداع، ويُخفي مؤشرات الكذب ببراعة. ولذلك، يرتبط كشف الكذب بعاملين متكاملين:

- قدرة المرسل الكاذب على إخفاء أو إظهار كذبه عن قصد أو غير قصد.
- قدرة المتلقي أي المكذوب عليه على ملاحظة واكتشاف الإشارات الكاذبة.

وأبرز هذه الإشارات اللغوية الدالة على الكذب هي:

• التناقض:

يظهر التناقض في التصادم الصارخ بين ثنايا النص، حيث تتعارض وتتضارب الأقوال فيما بينها لنفس المتكلم، أو ضمن نفس الخطاب. فلا يمكن – منطقيًا أو نفسيًا – أن نجمع بين الحب والكراهية لنفس الشيء في وقت واحد، أو أن نعدل ونظلم في آنٍ واحد. كما أن هذا التعارض والتضاد قد يظهر بين أقوال الشخص وأفعاله، فيبدو سلوكه اليومى مناقضًا لما يدّعيه في كلامه، وهو ما يعمّق الشكوك حول صدق خطابه. فالكاذب، مهما بلغ من المهارة، يصعب عليه إخفاء هذه التناقضات التي تنكشف

بالتأمل والتحليل. (هارالد، 2016، صفحة 34)

• الاستحالة:

الاستحالة مؤشر آخر للكذب، وتتمثل في تعذر وجود الشيء المعبر عنه، أو مخالفته لما هو متعارف عليه واقعياً. فالاستحالة تعني أن القول يصف شيئاً يتجاوز قدرة البشر على فعله، أو يخالف القوانين الكونية والطبيعية. فلا يمكن للإنسان أن يصطاد قرشاً أبيض بيديه العاديتين، أو أن يحبس صاعقة في زجاجة. فإذا لم يتمكن القائل من إثبات ذلك أو تقديم برهان عليه، فإن ادعاءه يدخل في نطاق الكذب أو الخيال.

• الخلط:

يظهر الخلط في الجمع بين أقوال أو أفكار متعددة دون نظام أو انسجام، أو في مزج وقائع وأحداث لا تنتمي إلى نفس السياق. هذا المزج يؤدي إلى دمج ما هو مختلف زمنياً أو مكانياً، وقد يُسند أفعالاً لأشخاص لم يقوموا بها. ينتج عن هذا الخلط تشويش في الفكر وتزييف للحقائق، كما في المثال التالي: "من أشهر معارك العالم القديم انتصار حنبعل في غوغاميل". مع أن حنبعل يُعد من أعظم القادة العسكريين في التاريخ القديم، إلا أن معركة غوغاميل هي معركة شهيرة للمقدونيين بقيادة الإسكندر الأكبر ضد الفرس، ولا علاقة لحنبعل بها.

11_لسانيات الكذب والابداع الأدبي:

تقدم لسانيات الكذب نفسها كنموذج منهجي يسمح بدراسة الكذب في اللغة بوصفه واقعاً قائماً و"كينونة لغوية" لا يمكن إنكارها. إنها لا تطمح إلى القضاء على الكذب أو إزالته من العالم، فذلك ليس من مهامها، بل تُوجّه اهتمامها إلى دراسة الكذب باعتباره نتاجاً لغوياً يجب تفكيكه وفهمه. فلسانيات الكذب لا تنشغل بالتمييز الأخلاقي بين الحقيقة والكذب، بل تُمكن الدارس من تحليل الكذب بصفته آلية تواصلية تتداخل فيها الوهم بالحقيقة، والتضليل بالتصديق. إنها تتيح لنا التعامل مع المرويات الموضوعية والنصوص المنحولة، والخطابات المخادعة، لا بغرض فضحها، بل لفهم بنيتها اللسانية وآليات إنتاجها. بل أكثر من ذلك، تُسهّم لسانيات الكذب في كشف كيفية اشتغال الكذب داخل النصوص دون حرج منهجي بل بوعي نقدي يسمح لنا أحياناً بالاستفادة الجمالية أو المعرفية من هذه النصوص، دون نسيان أنها كاذبة ومراوغة.

وتتجلى أهمية هذا التوجه في مجالات متعددة، منها: الميثولوجيا، والأنثروبولوجيا، والفقه، وعلوم الحديث، والإعلام، والاتصال، حيث يكون الكذب أحياناً أداة رمزية أو سردية أو تواصلية. كما تتقاطع لسانيات الكذب، على المستوى الإجرائي، مع اللسانيات الجنائية، بهدف رصد أنماط الخداع والتضليل ومع اللسانيات القانونية، لتفكيك الخطاب المراوغ والمتحايل. وتمتد هذه المقاربة إلى كشف السرقة

العلمية والأدبية عبر التثبت من السبق المنهجي والتاريخي، كما تفتح الباب أمام مساءلة الممارسات الترجمية التي تتعمد التحريف، أو تزوير النصوص الأصلية بالحذف أو الإضافة أو التحوير المتعمد.

12_ الكذب والنقد العربي القديم:

لعلّ أخصب ميدان لدراسة الكذب هو الشعر، إذ تقوم العلاقة بين الشعر والكذب على جدلٍ قديمٍ ومرّكب، طالما تجاذبته الآراء النقدية المتباينة، بين من نظر إلى الشعر بوصفه محاكاة للواقع، ومن رآه ممارسة فنية تعتمد الكذب كوسيلة جمالية وتعبيرية، وبين من خضع في تقييمه لمعايير أخلاقية صارمة ترى الكذب انحرافاً عن الصدق. وقد تناول النقد العربي القديم هذه العلاقة بكثير من التبصّر ويمكن تلخيص المواقف النقدية فيه ضمن ثلاثة مقولات شهيرة:

(1) أحسن الشعر أكذبه

(2) أحسن الشعر أصدقه

(3) أحسن الشعر أقصده

ويرجع هذا التباين إلى اختلاف المعايير التي اعتمدها النقاد، والتي تأرجحت بين المعيار الأخلاقي والديني من جهة، والضرورات الفنية من جهة ثانية، مثل الصناعة الشعرية والقيم البلاغية والجمالية وقد تناسب هذه الأحكام تبعاً للسياقات والمقامات التي يُقال فيها الشعر أو يُقيّم. للاطلاع على معالجة مفصلة لهذه الإشكالية (زبني، 2020، الصفحات 84-93)

13_ إجراءات نقدية لدراسة الكذب في الشعر العربي القديم:

ولدراسة الكذب أيضاً في الشعر العربي القديم، لجأ النقاد إلى مجموعة من الإجراءات المنهجية التي تمثل وعياً نقدياً مبكراً بجدلية الشعر والصدق، ومن أبرز هذه الإجراءات:

أ. تمحيص الأشعار المكذوبة من الصحيحة في نسبتها إلى أصحابها، ويُقصد بذلك غربلة المنحول والموضوع والمنتحل من الشعر، سواء لأسباب سياسية أو قبلية أو دينية أو فنية.

ب. دراسة مسألة الصدق والكذب من منطلقات متعددة، منها:

- النظر الفني الجمالي الذي يربط الكذب بالإبداع والبلاغة.

- الاعتبار الأخلاقي والديني الذي يُقيّم الشعر بحسب تطابقه مع الحقيقة.

- المنظور البلاغي القائم على المفاضلة بين اللفظ والمعنى، وأيهما أسبق وأولى في التقديم.

وتُظهر هذه الإجراءات أن النقاد لم يتعاملوا مع الكذب بوصفه عيباً مطلقاً، بل أخضعوه للتقييم

النسبي بحسب الغاية الشعرية والسياق الجمالي والمقامات التداولية.

14_ الفصل بين الكذب والإبداع الأدبي:

يرتبط الكذب بالإبداع الأدبي من خلال صنع المبدع لعوالم غير موجودة. فالأدب يمثل كونًا موازيًا، من نسج خيال الكاتب أو المبدع، وهو كون مقلوب، كما وصفه (هارالد، 2016، صفحة 143)، لا يخضع لنظم الطبيعة المعروفة في عالم الواقع.

شخصيات الأعمال الأدبية وأبطالها لا وجود لهم، كما أن أقوالهم وأفعالهم لم تحدث في الواقع، وبما أنها مخالفة لما هو واقع، فهي - من حيث المبدأ - كذب صراح. فكل هذا مجرد اختلاق، بل يمكن اعتباره تدليسًا أو مخادعة، لأن الإنسان يعيش واقعه لا توهمات غيره، ولا خيالات المبدعين. ولهذا السبب يرى الكثيرون أن الأدب كله أرض أكاذيب، على حد تعبير (هارالد، 2016، صفحة 144)

ذكرنا من قبل أن الكذب يسعى في جوهره إلى التضليل والخداع، وقد يضمّرنية إلحاق الأذى بالغير، سواء ماديًا أو معنويًا. وإذا كان الكذب والعمل الأدبي يلتقيان في كونهما مخالفين للواقع، إلا أنهما يفترقان من حيث الغاية والوظيفة. فالعمل الفني لا يتعمد الخداع أو الإيذاء، بل إن الكون الموازي الذي يخلقه، بكل شخصياته وأحداثه الوهمية، ليس سوى تشريح رمزي للواقع، بل هو تمثيل له بوسائط جمالية. فالأدب لا يقدم الأكاذيب من أجل التضليل، بل من أجل تقديم رسائل إنسانية، ونقل رؤى المبدع إلى المتلقين. وهذا ما يجعل الفنان - لا السياسي ولا المؤرخ - هو الأجدر بالكلام عن الواقع، لا لأنه يحتكر الحقيقة، بل لأنه يُبدع الحكاية والرمز والمجاز، ويوظفها للتعبير عن القلق الإنساني والمشارك الوجودي.

إن المبدع لا يكتب من أجل تشويه الواقع وفق أهوائه، ولا من أجل التحكم فيه أو تفكيكه لإخضاعه، بل يكتب من أجل الحديث عنه بصيغ رمزية وانفعالية وجمالية (رانغيل، 2022، صفحة 159). ولذلك يمكن القول إن ما يُميّز الأديب عن الكاذب هو أن الأدب لا يغالط، فالأديب لا يقصد الخداع، بل يقصد الإبداع، أي تقديم تجربة جمالية ووجودية، لا تمرير وهم مقصود (هارالد، 2016، صفحة 145)

ثم إن النص الأدبي، سواء أكان شفاهيًا أم مكتوبًا، يُقدّم نفسه بوصفه أدبًا، لا حقيقة واقعية. فهو لا يدّعي أنه ينقل الواقع كما هو، بل يعترف منذ البدء بأنه افتراض فني لا يزاحم الواقع في صدقيته (هارالد، 2016، صفحة 146). والمبدع لا يكتب من أجل الحصول على منفعة مباشرة، أو تلاعب بالمتلقي، بل يعتبر عمله الأدبي غاية في ذاته، تمثل رؤيته للعالم، لا وسيلة للتضليل أو الهيمنة (رانغيل، 2022، صفحة 160)

لا يشترط في العمل الفني عمومًا، ولا في الأدب خصوصًا، أن يكون محاكاة للواقع أو مرتبطًا بالمفاهيم الجمالية التقليدية. فقد تجاوز الفن، خاصة بعد الحداثة وما بعدها، فكرة أن على العمل الأدبي أو الفني أن يُقلّد العالم أو يلتزم بأشكال الجمال الكلاسيكية. فليس هناك ما يلزم النص أن يكون

انعكاسًا للواقع أو محاكاة له، كما أنه ليس ملزمًا بالانسجام مع مفاهيم الجمال القديمة، التي لم تعد قادرة على احتواء التجربة الفنية المعاصرة (رانجيل، 2022، صفحة 162)

إن الإبداع يمكن أن يكون قطيعة مع الواقع لا تمثيلًا له، ويمكن أن يكون نفورًا من الجمال لا انتماءً له. وهو بهذا يفتح أفقًا جديدًا للتعبير، حيث تتحوّل "الأكاذيب الأدبية" إلى أدوات نقد رمزي، أو لغة جديدة لإعادة قول ما لا يُقال.

ويمكن القول مما سبق أن الأدب لا يُعدّ كذبًا، حتى وإن حمل إشارات الكذب بوضوح، وذلك لأن اللغة الفنية تتيح اختراق الواقع والوصول إلى أعماق أبعد من حدود التجربة المعيشة. فهي تمكّن المبدع من سبر أغوار النفس والطبيعة البشرية، وتجاوز المستحيل الذي يكبل الإنسان في واقعه اليومي. لكن من جانب آخر، قد يتحوّل الأدب إلى مجرد أكاذيب، حين يسعى إلى تحصيل منفعة شخصية، كما في حالات الانتحال، أو المديح المأجور، أو حين يخدم خطابًا دعائيًا مغرضًا. فالأدب الذي يخدم الأكاذيب والدعاية الإيديولوجية المغرضة، مثل الأدب الاستعماري، يحمل تشويهًا للحقيقة وخداعًا ومراوغة للشعوب المحتلة، وهو بذلك يُفرغ الأدب من بُعده الإنساني والجمالي. وكما ذكرنا، فإن الأدب لا يكون غاية في ذاته في هذه الحالة، بل يتحول إلى وسيلة، ويكفّ عن كونه ابتكارًا حرًا وإبداعًا رمزيًا، ليغدو مجرد أداة للخداع والإخضاع.

خاتمة:

- لا يمثل الكذب انحرافًا طارئًا في اللغة، بل هو أحد أوجه اشتغالها الأكثر تعقيدًا. فمن خلاله تُختبر طاقة الخطاب على الإقناع، والتأثير، والتضليل، بل وعلى إعادة تشكيل الواقع.
- لقد حاول هذا المقال أن يُبين كيف يمكن للسانيات الكذب أن تكشف عن البنى النصية التي يُصاغ بها الكذب، وعن الآليات التي توظفها اللغة لتميره في ثنايا الخطابات، دون أن يكون دائمًا ظاهرًا أو فاضحًا. فالكذب ليس مجرد محتوى باطل، بل استراتيجية تداولية، تُستخدم عن وعي أو لا وعي، لأهداف تتفاوت بين اللذة والخداع والمصلحة.
- لكن تحليل الكذب – وإن كان ضروريًا – لا يكفي. وهنا تبرز الحاجة إلى فقه الخطاب، تلك المرحلة التي تتجاوز التحليل نحو الفهم، والاستيعاب، والتأويل العملي. إن فقه الخطاب يُفعل نتائج لسانيات الكذب لفهم الأسباب العميقة التي تجعل الصادق يُكذّب والكاذب يُصدّق، ويقترح أدوات لتفكيك البنية الخطابية المغشوشة، وكشف مؤشرات الكذب مهما تنكرت.

- ولذلك، فإن لسانيات الكذب لا تكتمل إلا ضمن مشروع أوسع هو فقه الخطاب، حيث لا يكون التحليل غاية في ذاته، بل وسيلة لفهم الإنسان واللغة والعالم.

قائمة المصادر والمراجع:

- (1) أبو هلال العسكري، *الفروق اللغوية*، تحقيق: عماد زكي البارودي.
- (2) العياشي ادراوي، الاستلزام الحوارى فى التداول اللسانى، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة الجزائر، الطبعة الاولى 2011.
- (3) جاك ديريدا، تاريخ الكذب، مقدمة، ترجمة وتقديم: رشيد بازي، الطبعة الأولى، 2016، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، المغرب.
- (4) خوان خائينتو مونيوث رانخيل، تاريخ الكذب، ترجمة: طه زيادة، دار الخان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2022.
- (5) شبيب العجمي، اللغة والسحر، الطبعة الأولى، 2003، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
- (6) طارق زيناى، "إشكالية الصدق والكذب وتجلياتهما فى النقد الأدبى القديم"، *مجلة إشكالات فى اللغة والأدب*، مجلة 9، العدد 4، السنة 2020، تاريخ النشر: 2020/11/07.
- (7) فاينريش، هارالد، اللغة والكذب، تعريب وتقديم وتعليق: عبد الرزاق بن نور، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2015.
- (8) ميشيل زكريا، *الأسنىة التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية: الجملة البسيطة*، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، 1986..